صفحات من «سيرة ذاتية»

«جبل النار»... والشيخ الصغير

الدكتور سهيل ادريس

الحقبة التي عشتُها حتى تقديم الشهادة الابتدائية «السرتيفيكا» أي حتى بلوغي الحادية عشرة، هي حقبة غائمة غامضة تحمل صورة باهتة من بضعة أشهر قضيتها أنا وأخي الأكبر في كتّاب كان يديره «الشيخ محمود» مؤذّن جامع برج أبي حيدر. ولعلّ والديْنا أرادا أن يتخلّصا من العفرتة والصّخب، فأرسلانا الى ذلك الكتّاب على سبيل «الزرابة» التي ستكون، مع ذلك، فرصة لتعلّم أحرف القراءة والإملاء، وحفظ آيات من القرآن.

والذكرى الباقية من تلك الأشهر القليلة في كتّاب «الشيخ محمود»، هي ذكرى دخول أبي ذات صباح، متجهم الوجه، الى غرفة المدرس، ونُطقه بعبارة واحدة قبل أن ينصرف:

ـ يا شيخ محمود! الحصيرة تحتاج الى تنفيض!

وما كاد أبي يخرج، حتى غَمزَ الشيخ محمود صَبيين اقتادا أخي من ذراعيه وأجلساه على كرسي منخفض، ثم برز صبيٌّ ثالث يحمل آلةً نراها للمرة الأولى، هي خشبةٌ رُبط طرفاها بحبل. وبطرفة عَيْن، نزع الصبيُّ حذاء أخي ثم أدخل قدميه في هذه الآلة، وتقدم صبيٌّ رابع فأمسك معه، من الطرف الآخر، بالخشبة التي حَصرَت الآن بحبلها قدمي أخي الذي بدأ يصرخ، وهو يتخبّط بين أيدي الصبيان...

وتقدَّم الشيخ محمود وبيده قضيب متين أخذ يضرب به القدمين المشدودتين المرفوعتين... وحين اشتدّ بكاء أخي، أمر الشيخ باقي الصبية أن يرفعوا أصواتهم بنشيد المدرسة ليغطّوا به صوت أخي الصّارخ...

أخذت أنا أيضاً أبكي، ثم تمكّنت من الهرب دون أن يستطيع الصبية اللحاق بي، وظللت أعدو حتى بلغت البيت، فدخلت غرفتنا من غير أن أسلّم على أمي، وانتظرت حتى عاد أخي ظهراً، فعانقته وأخذنا نبكي معاً.

وحين عاد أبونا في المساء، لم يسألنا عن شيء، ولم نقل له شيئاً، ولكننا لم نشكّ في أنه قرأ في عيوننا تعبير كراهية له لم نستطع أن نُخفيه.

قال لي أخي وهو يَدْلك قدميه متوجّعاً: ـ لقد نجوتَ أنت يا ملعون من «الفَلَق»!

قلت: ـ تنفيض الحصيرة يعني، إذن، الفَلَق؟!

لم أسمع جواب أخي، لكني أخذت فجأة أتساءل: أيكون هذا «الفَلَق» هو الذي وَرَدَ في السورة التي حفظناها، قبل اسبوعين، في كتّاب الشيخ محمود، والتي مطلعها «قل أعوذ بربّ الفَلَق، من شرّ ما خَلَق؟»

كانت تلك الواقعة آخر عهدنا بكتّاب الشيخ محمود. فقد اتفقت مع أخي على ألا نذهب صباح اليوم التالي الى الكتّاب، وتعاهدنا على رفض العودة اليه، مهما كلّف الأمر. وكان ذلك، على ما أذكر، أوّل تمرُّدٍ خطير ضدّ الإرادة الأبويّة!

بيد أن أباننا ما لبث أن ألحقنا بكتّاب آخر من الكتاتيب التي تعلّم القرآن الكريم، كان يديره شيخ آخر في حيّ «المصيطبة» هو الشيخ عبد الستّار دوغان الذي أصبح ابنه محمد أمين رفيقي على مقعد الدرس، ثم صديقي وزميلي في صحيفتيْ «بيروت» و «بيروت المساء» قبل أن يؤسس جريدة «الشعب» التي ما يزال صاحبها ورئيس تحريرها حتى اليوم.

وأحسب أني لم أكن أتجاوز السادسة من عمري حين التحقت مع أخي بكلية المقاصد الاسلامية في منطقة «الحرج»، بفضل مساعدة الوجيه المحسن أنيس الشيخ، زوج خالة أمي، الذي دفع أقساطنا في الكلية طوال الدراسة

الابتدائية. وقد ظللت في المقاصد خمسة أعوام انتهت بفوزي بشهادة الدراسة الابتدائية.

وبالرغم من فوزي بهذه الشهادة، فقد كنت «ضعيفاً» جداً في مادّة الحساب... كنت أحصل على «امتيازات» كثيرة في مادّة «العربي»، وكان «دفتر العلامات» الشهري يحمل غالباً تقديرات «جيّد» و «جيّد جداً» وحتى «ممتاز» إزاء مواد «القرآن» و «الإنشاء» وربّما «التاريخ» و «الفرنسي». أما التقدير إزاء مادّة «الحساب» فلم يكن في أحسن الأحوال إلا «دون الوسط»، وهو في بعض الأحوال «ضعيف» وفي معظم الأحوال «ضعيف جداً». وترجمة هذه التقديرات بالأرقام كانت تتراوح بين ٧ علامات على عشرين و٣ علامات...

هذا الضعف الذي كان يثير سخرية رفاقي في «الصف» هو الذي جعل معلم الحساب يتركني وشأني، كأنّه يئس من إمكان تحسُّني في هذه المادّة!

وتمثيلاً على ضعفي في الحساب، أروي في مجالسي الخاصّة، وربما في إحدى محاضراتي، أن معلّمي هذا، اليائس مني، خطر له ذات يوم أن يلغي تلك «المعاهدة الصامتة» التي وقّعها معي.... فاستدعاني في صفّ الحساب الى اللّوح الأسود، وقال لي:

ـ أعرف أنك ضعيف، بل «عدمان في الحساب... ولذلك فسأعطيك عملية بسيطة جداً...

ورأيته يلتفت الى جانب في القاعة صدر منه بعض ضحكات مكبوتة تبادلها طالبان أو ثلاثة، فأراد أن يعبس ليردعهم، ولكن عبسته تحوّلت إلى شبه بسمة متواطئة ساخرة... ثم عاد يقول لي وأنا أمام اللوح الأسود:

ـ اكتب يا شاطر!

لم ألتفت إليه حتى لا أرى البسمة الهازئة على قَسَماته، بل انتظرته حتى أضاف:

ـ قاعتان تدرس منهما هذه القاعة، أكتب «٢»، في كل واحدة منهما اثنا عشر مقعداً، أكتب «١٢»، على كل مقعد طالبان، أكتب «٢»، كان غائباً من الطلاب يومذاك خمسة، اكتب «٥»، فكم يكون عدد الطلاب الحاضرين في القاعتين؟.

كتبت كلّ هذه الأرقام بيدٍ ترتجف، ثم فوجئت بها كلّها تدور في عينيّ وفي رأسي، فأخذت أجمع وأضرب وأقسم وأطرح، ثم أطرح وأقسم وأضرب وأجمع، وطلع معي في آخر العملية ما يساوي: ٢٥٣٤٧، فكتبت الرقم بسرعة وأنا أحمد الله أنه لم يكن فيه «كسور»!..

وفيما ظللت واقفاً تجاه اللوح الأسود، أسمع قهقهات رفاقي ورائي، من غير أن ألتفت إليهم، أحسست بإصبعين قويين يفركان أذني فركاً شديداً أطلق مني صرخة توجُّع ضاع صوتها في قهقهات الرّفاق... ثم قال أستاذ الحساب:

ـ رُح! الله يسوّد وجهك مثل هذا اللوح! كنت أظنّ أنك طالب «عَدْمان» لا حمار «خَرمان»!

أظنّ أني بعد أن عُدت الى مقعدي والدموع في عينيّ، تذكرّت بطاقات «الامتياز» المذهّبة التي كنت قد حصلت عليها في المواد الأخرى، ولا سيما «اللغة العربية»، فأخرجتها من محفظتي الصغيرة، وأخذت أعدّها نكاية بمعلّم الحساب وبالرّفاق!

أما رفاقي في الحيّ، فهم الذين كانوا يعيشون في شارع «فتح الله» في منطقة «البسطة التحتا». وكنّا نلعب في «الكلّة» و «الحطّة نطّة» و «اللّهجة»، ونطيّر طيّارات الورق الملونة، ونتسابق حتى الشارع الرئيسي الذي كان يتّصل نزولاً بشارع «الخندق الغميق»، ويمتدّ صعوداً حتى «الحرج» الذي كانت تقوم فيه «كلية المقاصد الخيريّة الإسلاميّة».

وكنا إذا استولى علينا الملل من تلك الألعاب الصغيرة، نتشاور لحظات، ثم نعمد إلى اللعبة الكبرى: الترام... نسرع اليه، ننتظر إحدى حافلاته التي تتوقّف عند محطّة «البسطة التحتا»، فنتعلّق على أبوابها، واثقين من أن قاطع التذاكر لن يملك الوقت لمطاردتنا، فرحلتنا لن تدوم أكثر من محطّة واحدة، لأننا سنهبط من الحافلة حين تقف عند محطة «البسطة الفوقا» ونتوجّه إلى «قهوة القزاز» حيث يُسْمَحُ لنا بالتفرُّج على «الخِرسان» وهم يتكلّمون..

كانت «قهوة القزاز» تلك مشهورة بأنها ملتقى البُكم، يَغدون اليها من مختلف الأحياء البيروتية، فيتبادلون فيها أحاديثهم الخاصّة بلغة الأيدي تتحرّك بحركات معيّنة هي قاموسهم الاصطلاحي الذي يُدخلون فيه ألواناً من هزّات الرؤوس وتمتمات الشِّفاه... وقد أخَذَنا الذهول والدهشة بادىء الأمر، كيف يتفاهمون ويتضاحكون ويعالجون مختلف الأمور بلا كلام، ويختلفون أحياناً ويختصمون. وحين نغادر المقهى، وننعطف إلى شارع «فتح الله»، نأخذ في تقليدهم ساخرين، ثم نكفّ إذ نتذكرّ رَدْع أهلنا إيّانا وتحذيرنا بأن الله سيُفقدنا النُّطق ويجعلنا مثلهم بُكماً إذا ظللنا نحاكيهم مستهزئين..

أمّا فُرجتنا الأخرى في الحيّ، فكانت «حمّام البسطة» الذي كان يقوم قبالة الجامع، وهو مُغتسل عموميّ يقصده السكان للتحمُّم، ونتغامز نحن، صبية الحيّ، للتسلّل اليه مُتلصّصين، ننظر الى المحمِّمين «يكيّسون» الرجال العُراة إلاّ من رقعة تستر العورة، ويدلكون أجسامهم السمينة غالباً، ويصبّون عليهم المياه الساخنة، ويطرقعون بقباقيبهم بين الممّرات... غير أنّهم كانوا يطردوننا إذا حاولنا أن نتسلّل للتفرُّج يوم الجمعة الذي كان مخصّصاً للنساء!

وأذكر أن اللافتة التي كانت معلّقة على باب «حمّام البسطة» كان مكتوباً عليها أيضاً باللغة الفرنسية BAIN BASTA. وقد سمعنا مرة أبي يقول لأمي إنه يريد أن يقصد الحمّام فقال لها:

ـ je fais au pain pasta.

فقالت له أمي ساخرة:

ـ لماذا ترقّق الكلمات؟ هذا لن يقلّل من خشونتك! يجب أن تقول je vais au Bain Basta!.

ثم قالت له: Tu parles comme une vache espagnole![1]

فانفجرنا ضاحكين، وشاركنا أبونا الضَّحِك..

كانت «الرحلة» التي نقوم بها بين محطّتي «قهوة القزاز» و«حمّام البسطة» تتوِّج ألعابنا اليومية في الحيّ، إذ كنا نتفرَّق عائدين الى البيوت، حيث كانت أمّهاتنا تنتظرنا لتخضعنا لعملية التنظيف والتغسيل قبل الجلوس الى مائدة العشاء.

وكانت أمي كثيراً ما تكلّف أخي الأكبر بأن يطبّق عليّ هذه العملية، فينتهزها فرصةً ليشدّد قبضته على رقبتي حين يفركها بالماء والصابون، فاذا تذمرّت شاكياً، عمد الى قرصي أو ضربي ليثبت بذلك سلطة الأخ الأكبر!

* * *

ولكن لحيّ «البسطة التحتا» وجهاً آخر كان يتكشّف لنا، نحن صبيانه، مع الأيام التي كانت تمضي بنا نحو الوعي والنضج. ففيه شاهدنا الجنود السنغاليين التابعين للانتداب الفرنسي، يقفون عند مفارق الطرق، حاملين بنادقهم المزوّدة بالحَرْبات. وكانت سحناتهم الزنجية السوداء تثير فينا حسّ العداوة، حتى من غير أن نعرف أنهم أعداؤنا، باعتبارهم جنود الانتداب الفرنسي الذي كان أهلنا ومواطنونا يسعون لإزاحته من لبنان.

غير أن وجه «البسطة التحتا» كان قد تسلَّل الى وعينا، بصفته وجهاً نضالياً في تاريخ لبنان، مما كنّا نسمعه من أحداث الحيّ ووقائعه وتاريخه منذ الاحتلال العثمانيّ. وقد قُدِّمت «البسطة» شهداءَ للبنان في عداد الشهداء الذين أعدمتهم السلطة العثمانية، كان منهم الاخوان المحمصاني وعمر حمد.

ولا شك في أن هذه «الشهادة» قد طبعت «البسطة التحتا» بطابعها، حتى أنها أصبحت تُعرف بـ«جبل النار»، إذ كانت تُشارك في كل حركة وطنيّة أو قومية، وربما كانت هي التي تُطلق «الشرارة» الى سائر الأحياء البيروتية، ومنها تنطلق الإضرابات أو التظاهرات التي كان الساسةُ يستعينون لتحريكها بفئة «القبضايات»...

و«القبضاي»، وهي كلمة تركيّة، شخصيّة طريفة كانت تلعب دوراً هاماً في حياة الأحياء الاجتماعية. وكان المفروض أن يتمتّع بحدّ أدنى من الشجاعة والإقدام والفروسية، يدافع عن كرامة سكّان الحيّ، ويجير المستجير به، ويعين المحتاج. وكان الناس يهابونه، إذ كان لا يسمح بأن «يدوس أحدٌ على طَرَفه»، فإن تجرّأ عليه دخيل أو غريب فلا بدّ له من أن يثأر لكرامته حتى لا يفقد هيبته. ولكن أهمّ عمل للقبضاي كان يتلخّص بأنه «زلمة» الزعيم السياسيّ للحيّ، ينفّذ رغباته ويؤمّن له مصالحه التي كانت تستقطب كسب الأصوات في الانتخابات النيابيّة!

وكان لجميع الأسر البيروتية الكبيرة «قبضاياتها» في الأحياء، أمثال عائلات قليلات وبيضون وشاتيلا وسنّو والعيتاني وشبقلو ودريان والفيومي والعانوتي وشهاب الدين والعريس ومنيمنة وعيدو وجنّون وسواها.

ومن القبضايات الذين طارت لهم شهرة أحمد الجاك الذي كان يملك مقهى كبيراً في قلب ساحة البرج، وكان معروفاً بالأريحية والكرم وإغاثة المحتاجين، وكان الزعيم الوطني رياض الصلح يحبُّه ويتسعين به ويقرّبه في مجلسه. وكنّا نحن صبية الحيّ نتنادى لنتفرَّج عليه كلّما مرّ في «البسطة» ممتطياً صهوة جواده، لابساً طربوشه الأحمر و«خنبازه» الأنيق وهو يهزّ بين الفينة والفينة خيزرانته، هامزاً بها حصانه. ومن المعروف أنه كان من عشّاق أم كلثوم، يسافر بين الحين والحين إلى القاهرة ليحضر حفلتها الغنائية ويعود في اليوم التالي الى بيروت. وكانت المطربة المصرية الكبيرة، على سبيل الإكرام، تنزل ضيفة في منزله كلما زارت بيروت، وتقيم بعض الحفلات لقريباته من العائلات البيروتية. وقد ظلّت وفيّة لذكراه بعد وفاته، فكانت تستجيب لدعوة ابنه حسن الجاك لإقامة حفلات غنائية في مصيف «عاليه». ويروون أن صديقاً عزيزاً على أحمد الجاك وافته المنيّة، فمشى في جنازته متأثراً تأثّراً شديداً. وفي مدفن الباشورة، وقف أحمد يرثيه، وحفظ الناس من أقواله هذه العبارة: «لو كان الموت «سبع» قتلناه، ولو كان جبل هدّيناه، ولو كان نار طفيناها، لكن الموت...» ثم توقف وقد عجز عن إتمام العبارة.. وبعد لحظات، ضرب طرف خنبازه بخيزرانته وأنهى رثاءه بقوله: «ولكنه الموت.. كاف سين أختك يا موت!»

وكان من الطبيعي أن يتطوّر معنى القبضاي أو يتلبس صفاتٍ أخرى قد لا تمتُّ الى الفروسيّة بصلة، وإن كان يظلّ يحتفظ بطابع الجرأة والإقدام.

من ذلك ما كان يمثّله قريبٌ لنا من آل السردوك، وهم عائلة مشهورة بتجارة الزيت، كانت تملك في قلب «البسطة

(١) أي: أنت تتكلّم كبقرة إسبانية!

التحتا» منزلاً كبيراً تُشرف شبابيكه على الشارع العام الذي كان يجتازه الترام.

وكنت كلما زرت مع والدينا ذلك المنزل أقف في صدر القاعة لأتفرج على صورة معلّقة في وسط الجدار مؤطّرة بإطار مذهّب تمثّل رجلاً ربع القامة يتكىء على سيف، وقد كُتب في أسفل الصورة بخطّ جميل هذا البيت من الشعر:

دعوني في الحياة أمت عزيزاً
فموت العزَ خيرٌ من حياتي!

ومما سمعت في زيارات متعدّدة وأسئلة متكرّرة يغذّيها فضول طفوليّ، جمعت قصّة قريبنا «القبضاي» أو «البطل»: أمين السردوك.

كان شجاعاً مقداماً يمتلك قوّة جسدية نادرة: ويقولون إنه كان يستطيع أن يُوقف على ذراعه ثلاثة أولاد. ولكنه كان يكره «الاستعمار» التركي كرهاً شديداً. من أجل ذلك تمرَّد على الخدمة العسكرية، وكان ينجح دائماً في الإفلات من رجال الدرك الذين كانوا يلاحقونه لإخضاعه لتلك الخدمة. الى أن جاءه يوماً على عجل دركيّ يحبّه من سكان الحيّ ليحذّره من أن فصيلة من العسكر سيداهمون منزله بين ساعة وأخرى ليعتقلوه ويسوقوه الى السجن بتهمة العصيان. وإذ كان يستعدّ للفرار على حصانه، وصلت «الدورية» التركية، وكان في عدادها ذلك الدركيّ الذي حذّره والذي كان متزوجاً بامرأة تركيّة جلبها من إحدى الحانات البيروتيّة. ولكي يشقّ أمين طريقاً للهرب، أطلق رصاص بندقيته على الأرض، فأصيب خطأً ذلك الدركي إصابة قاتلة. واقتيد السردوك الى السجن، ولكن تدخُّل بعض المتنفّذين بالضغط والمال أدّى الى إطلاق سراحه. ويقال إن آل سرسق المسحيين الساكنين في حيّ الأشرفية، أصدقاء أمين السردوك، قد أرسلوا صفيحة محلاّة بالذهب «اشتروا» بها تبرئة السردوك. غير أن زوجة الدركي القتيل، سافرت الى «الباب العالي» وأصدرت حكماً آخر باعتقال السردوك، وقصدت السجن لتتشفّى منه وتشمت به. غير أنه شتمها وأوضَحَ أنه لم يتقصَّد قتل زوجها، وهو من أصدقائه.. وحين هزئت بأقواله وصفها بأنها «شرموطة»! وكان أن ردّت عليه بأنها ستعمل على استصدار عفوٍ عنه، إذا نعت أمّه بما نعتها به... فعاد الى شتمها، مردّداً كلمته مرّات عديدة.

يقول أقرباؤه الذين يروون قصته: إنه صعد برباطة جأش الى المشنقة حين صدر الحكم بإعدامه، وصاح قائلاً، موجّهاً كلامه الى امرأة الدركيّ القتيل:

السجن لي مَسْجد والجنزير خلخال
والمشنقة يا عاهرة أرجوحة الأبطال

وأضاف يقول لها وهو يدفع الكرسيّ من تحت قدميه: «ادحشيها في طيزك»!

لا يزال أفراد العائلة يروون قصة أمين السردوك مثالاً للشجاعة... وتقديس الأمومة.

* * *

قُبيل بلوغي الثانية عشرة، فُصلت فصلاً قاسياً عن رفاق الحيّ في «البسطة التحتا» بالتحاقي أو إلحاقي بمعهد دينيّ كان مقاماً في حيّ «رمل الزيدانية» ويحمل اسم «كلية فاروق الشرعيّة ـ ذكرى الشيخين خالد والحوت». وكما يوضّح الاسم، فإن ملك مصر السابق «فاروق» كان ينفق على هذا المعهد، ويُشرف عليه مفتي الجمهورية اللبنانية الأسبق الشيخ محمد توفيق خالد.

وقد روى لي المرحوم الأستاذ عبد الله المشنوق حين انضممت الى أسرة تحرير جريدة «بيروت» اليومية التي كان قد أسّسها مع الأخوين المرحومين محيي الدين النصولي وأنيس النصولي، أنه هو الذي رشّحني للدراسة الدينية في ذلك المعهد...

كان المشنوق مديراً لكلية المقاصد الاسلامية في بيروت حين جاءه المفتي يقترح عليه وضع لائحة بأسماء عددٍ من الطلاّب الذين أنهوا في الكلية دراستهم الابتدائية، فكان اسمي من بين أسمائهم. وبالرغم من ابتهاجي بدخول الكلية الشرعية آنذاك، فقد أحسست بالحزن حين تبيّنت أن تلك الدراسة الجديدة، بطابعها الرصين وبما تفرضه عليّ من حياة «الطالب الدّاخلي» في المعهد، ستحرمني من رفاق «البسطة التحتا» وتنقلني نقلاً ظالماً من مرحلة الطفولة ولهوها وألعابها، الى حداثة قاسية تحفّ بها الرصانة والجديّة.

انقطعت عن لقاء رفاقي إلا في عطلة الأسبوع، أي بعد ظهر الخميس ويوم الجمعه، إذ كنت أقضي سائر أيام الأسبوع طالباً داخلياً في الكلية الشرعية. والدموع التي ذرفتها في الليلة الأولى التي قضيتها خارج المنزل، فجّرها حنين الى البيت والأهل، والى الحيّ والرفاق.

وكان ارتدائي الزيّ الديني، الجبّة والعمامة، بعد أشهر قليلة من دخولي المعهد، هو الذي قطع علاقتي قطعاً كليّاً برفاق الحيّ... فقد حدث أن خرجت بعد ظهر خميس من عطلة الأسبوع بذلك الزيّ الديني الجديد، وفي نيّتي أن ألقى الرفاق. ولكني رأيتهم يقفون مذهولين حين اقتربت منهم وأنا أبتسم.. ثم رأيتهم يتراجعون، كأنّي أخفتُهم بهذا المظهر الجديد.. وأحسستُ فجأة بحاجزٍ غير مرئي ينتصب بيني وبينهم، فإذا بي أنفتل من غير إبطاء، وأسرع في العودة الى البيت بإحساسٍ من الخجل والخوف.

وصباح اليوم التالي، وقع ذلك الأمر الذي لا أستطيع، مدى العمر، أن أنساه...

فقد خرجت من المنزل، في طريقي الى السوق لشراء بعض الحاجات، فإذا بي أراهم، هم رفاقي، يلحقون بي فجأة، كأنهم تواعدوا على ذلك، ويصيحون بصوت واحد، وبإيقاع واحد:

ـ شيخ صغير! شيخ صغير! شيخ صغير!

لماذا يهزأ الرفاق بي ويتنكّرون لي، كأنهم ما عرفوني يوماً؟ أيكونون قد حكموا بأنّي خُنتهم إذ ارتديت هذا الزيّ الذي يختلف عن أزيائهم، أم أنّ مظهري الجديد هذا كان بذاته مثيراً للسخرية؟

حين وقفت أمام المرآة في المنزل تأكّدت من أن قِصَرَ قامتي هو السبب. صحيح أني كنت ما أزال صغيراً في السنّ، ولكني كنت كذلك قصيراً.. وقد أقنعتني الأيّام بأن ارتداء الزيّ الديني هو الذي «فضَح» ذلك القِصَرَ في القامة الذي لم يكن يلفت الانتباه. و«عقدة النقص» تلك لم تلبث طويلاً حتى تلبّست شكلاً من أشكال الحقد والنفور من الجبّة والعمامة.. لا سيّما بعد أن رأيتني هدفاً دائماً للأنظار، يتوقّف أصحابها في الشوارع ليتابعوني بفضول: مشهداً فريداً يمثّله فتى صغير وقصير يرتدي لباساً دينياً يُفترض أن يُوحي بالوقار والرصانة.. وكان أثر ذلك أن وجدتُني ألازم البيت في العطلة الأسبوعية، لا أغادره إلّا لتأدية صلاة الجمعة في مسجد البسطة التحتا القريب.

وحدث مرة أني كنت أمشي في الطريق حين سمعت صوتاً نسوياً ينبعث من شرفة منزل منادياً «يا شيخ! يا شيخ!»، فرفعت بصري وما لبثت أن خفضته حين ذكرت أني «شيخ رصين عفّ» علّموه في المدرسة بيتاً من الشعر يقول:

وأغضّ طَرْفي إن بدتْ لي جارتي
حتى يُواري جارتي مأواها

وتوقّفت عن السير لأعرف ما تريده مني امرأة الشرفة، وقلت في نفسي: لعلّها تريد استفتائي في أمرٍ شرعيّ.. ولكنها ما لبثت أن قالت: «أرجوك، انتظرْ قليلاً حتى أنادي أختي لتتفرَّج عليك!».

تابعت سيري وأنا ما أزال غاضاً طرفي من هوانٍ ومذلّة، وجبيني يرشح عَرَقاً، وصوت في قرارة نفسي يدمدم: «هكذا إذن يا صاحبي: لقد أصبحتَ فُرْجة!»

وازددت ملازمة للبيت، وانغلاقاً على النفس.

ومن نافذة غرفتي في الطابق الثالث، كنت أتطلّع الى رفاق الحيّ يلعبون ويمرحون، فأحزن لحرماني من مشاركتهم لهوهم حزني لأنهم قد نسوني تماماً.

وفي الأشهر التي تلت، بدأ الرفاق يشاركون، بطريقتهم، في المعارك الوطنية والقومية، فيمشون في تظاهرات صغيرة يهتفون بأصواتهم الثاقبة «فلسطين عربية» و«يعيش لبنان يـ... يـ... يـ... يعيش!» ويتحدَّوْن بقبضاتهم الصغيرة الجنود السنغاليين المرابطين عند منعطفات الطرق، ويكتبون على الجدران، على سبيل السخرية بأولئك الجنود، تلك العبارة التي انتشرت آنذاك:

«MOI, CIVILISER VOUS!».

ثم يضيفون اليها كلمة واحدة: «طُز!»

وكان يؤلمني أني لست معهم، لا سيما في تلك التظاهرة التي شكّلوها احتجاجاً على تنصيب اميل إدّه من قبل الفرنسيين رئيساً للجمهورية. وقد رأيتهم من نافذتي يرفعون على كتف أحدهم رفيقنا شكري الذي كان يردّد: «أنا إدّه حُبُّوني!» فبجيبه الرّفاق «خَراي عليك خَراي عليك!».

ودعانا قريبنا توفيق المبسوط ذات يوم، إلى سهرة تحييها أمّ كلثوم في إذاعة القاهرة، فأبهجني أن تلك الليلة تتفق مع عطلتي الأسبوعيّة: الخميس ـ الجمعة. واجتاحتني سعادة شهوانيّة: سألتقي مرة أخرى قريبتي «أمية»... على سطح منزل المبسوط، أو في ذلك الركن المظلم من الدار.. بل ربما تجرّأت «أميّة» فدفعتني إلى الغرفة المجاورة لمزيد من العناق والتقبيل!

ولكني تذكّرت فجأة أني أصبحت شيخاً، وأن هذا لا يليق برجل دين، فضلاً عن أنه محرَّم شرعاً.. وتخيّلتني جالساً على السطح، مرتدياً الجبّة ولابساً العمّة، فقلت «إنها لن تجلس ملتصقة بي» احتراماً للزيّ الديني، ولن أسعى الى الالتصاق بها، احتراماً للزيّ الديني... بل لن يتاح لي حتى أن أتمايل طرباً لصوت أم كلثوم، احتراماً للزيّ الديني.

حين همّ الأهل بالانصراف لحضور تلك السهرة، اعتذرت عن مرافقتهم... ولشدّ ما أزعجني أن أحداً منهم لم يسألني عن سبب الاعتذار... بل خُيِّل إليّ أن أخي الأكبر رمقني بنظرة شماتة!

وكان ذلك آخر عهدي بـ «أميّة»...

* * *

مع تخلّي رفاق الحيّ عني، وانكفائي إلى داخل البيت هرباً من العيون الفضوليّة، وتغييباً «للمشهد» الذي يشكّله الشيخ الصغير المثير للسخرية الذي كنته، وانقطاع علاقتي بـ «أميّة» والقريبات، انغلقت على نفسي حزيناً، وضاقت بي الدنيا بين غرفتي الصغيرة في منزل «جبل النار» وطاولة الدرس في «الكلية الشرعية». ولم ينقذني من الاختناق إلّا... الكتاب!